الشهادة
في شعر عبد الله بن رواحة – كعب بن مالك الانصاري
(قراءة تحليلية)

م.م. محمود احمد شاكر

جامعة بغداد/ كلية العلوم الاسلامية

Email : mahmoodahmedsh@yahoo.com

Certificate in poems Abdullah bin Rawahah and Ka'b bin Malik Al-Ansari, analytical reading

Assistant teacher : Mahmood Ahmed Shaker

Baghdad University /college of Islamic Sciences / Department tenets of the religion

Email : mahmoodahmedsh@yahoo.com

المقدمة :

الاسلام هو الشريعة الالهية الخاتمة للشرائع السماوية ، و ان العقيدة الاسلامية قد فرضت على المسلمين فريضة الدفاع عن الدين و العرض و دعوة الناس للدخول الى هذا الدين ، فكان امر الدفاع عن الدين هو منطلق الشعراء الصحابة الاوائل امثال كعب بن مالك الانصاري و عبد الله بن رواحة الشاعر الشهيد و غيرهم الكثير من شعراء الرسول المبرزين ، و سيقوم البحث بعرض نماذج خالدة من عيون التراث الشعري المتحدث عن ابطال عرفهم التاريخ و عرفتهم الامة العربية بما حملوا من مثل انسانية ارتفعت الى مستوى الجود بالنفس دفاعا عن الاعتقاد الاسلامي الجديد ، فذلك حمزة بن عبد المطلب اسد الله المحارب و ذلك جعفر ابن ابي طالب عليهم السلام و من حولهم فتيان المسلمين يسطرون اروع ملاحم الاستشهاد تمسكا بالمباديء و القيم التي عرفها هؤلاء الصحابة الاوائل . فكانت قصائد الشعراء تبكي فتيان المسلمين و صحابة الرسول رضوان الله عليهم فالفقد كبير و هول الاستشهاد اكبر .

التمهيد :-الشهيد لغة و اصطلاحا :

يقول صاحب لسان العرب : ((الشَّهيدُ : المقتول في سبيل الله ، و الجمع شُهَداء . و في الحديث : ارواح الشهداء في حواصل طيرٍ خُضرٍ تَعلقُ من ورق الجنةِ ، و استشهد : قُتلَ شهيداً . و تشهَّدَ طلب الشهادة ، قال ابن الانباري : سمي الشهيد شهيداً لان الله و ملائكته شهودٌ له بالجنةِ . و الشهادة تكون للافضل فالافضل من الامة ، فأفضلهم من قُتلَ في سبيل اللهِ ، مُيزوا عن الخلقِ بالفضلِ و بيَّنَ الله انهم احياءٌ عند ربهم يُرزقون و قال الكسائي سمي شهيداً لان ملائكة الرحمة تَشهدهُ و لقيامه بشهادة الحق في امر الله حتى قُتلَ ، و لانهُ يَشهدُ ما أعد الله له من الكرامة بالقتل ، فهو فعيل بمعنى فاعل و بمعنى مفعول .)) (١) و و يقول صاحب التعريفات العلامة علي بن محمد الجرجاني ((الشهيد هو كل مسلم طاهر بالغ قُتلَ ظلماً و لم يَجب بقتلهِ مالٌ ، و لا يُرتَث ، اي لم يُصبهُ شيء من مرافق الحياة)) (٢) لقد كان شعر عصر صدر الاسلام هو القصيدة العربية التي جسدت التضحيات و مُثل الشهادة و اعلى مراحل الالتزام فسطرت لنا اروع ملاحم البطولة التي تتحدث عن اكرم شخصية (الشهيد) لقد نبعت القصيدة الاسلامية من تلك التحديات التي واجهت ذلك الركب الاسلامي العظيم ، و قد أولت القصيدة اهتماما بالغاً برحيل الابطال ، فالراحل هنا يختلف عن البطل المقتول في قصيدة ما قبل الاســــــــلام ، فالقضية العقائدية التي حملها الشهيد انما جعلته يتخطى حدود الزمان و المكان و الحقيقة ان دراسة صورة الشهيد لا يمكن ان تتم بمعزل عن الصور الاخرى التي تتضافر في استكمال الصورة ، و كثيرا ما تتقابل صورة البطل ضمن اطار فني موحد يسعى للنيل من الخصم و كثيرا ما تقف القصيدة عند محور الشهيد لتصور عظمة مصرعه و تلك المشاهد التي تجسد فكرة النيل من الخصم .

لقد سعى الشاعر الاسلامي الى استكمال الصورة في وصف مكان الاستشهاد و ما نتلمسه من هول المشهد ، و تتابع الصحابة نحو حياض الشهادة و كأنها المورد العذب و لقد نجحت لغة الشاعر الاسلامي الى سهولة التعبير حتى تكون قصائد الشهداء راسخة في عقول الاجيال .

المبحث الاول : الشهادة في شعر عبد الله بن رواحة:

لما كان الشعر هو الوثيقة التاريخية التي لا غبار عليها فأن ((الشعر هو الحقيقة و الانسان و هو معنى الحياة و شعر كل عصر مراة له)) (٣) و هنا نقف عند احدى الرثائيات الخالدة في بكاء حمزة بن عبد المطلب عم النبي (صلى الله عليه و سلم) و اسد الله حين رحل شهيدا في معركة احد فقال : (٤)

بكت عيني و حق لها بكاها و ما يغني البـــــــكاء ولا العويلُ

على اســـــد الاله ِ غداة قالــوا أحمزة ذاكمُ الرجــلُ القـــــــتيلُ ؟

أصيب المسلمون به جميعاً هناك ، و قد اصيب به الرسولُ

أبا يعلى لك الاركانُ هُدت و انت المـــاجدُ البر الوصـــولُ

عليك ســـــلامُ ربك في جنانٍ مخالطـــها نعـــــيمٌ لا يـــزولُ

الا يا هاشم الاخيار ِ صبراً فكلٌّ فعـــالكم حســـــــنٌ جميلُ

رســـــــولُ الله مصطبرٌ كريمٌ بأمـــــــر الله ينطـــــقُ اذ يقول

الا من مبلغٌ عني لـــــــؤيا فبعد اليوم دائلـــــةٌ تـــدولُ

و قبل اليوم ما عرفوا و ذاقوا وقائعـــــــنا بها يشـــــــفى الغليلُ

نســـــــيتم ضربنا بقليب بدر غداة اتاكم الموتُ العجـــــيلُ

غداة ثوى ابو جهلٍ صريعاً عليه الطيرُ حائـــــــمةً تجولُ

و عـــتبة و ابنهُ خرا جميعا و شيبةُ عضهُ السيف الصقيلُ

و تركنا امية مجـــــــــلعباً و في حيزومه ِ لدنٌ نـــــــــبيلُ

و هام بنو ربيعة ســـــــائلوها ففي اســـــــيافنا منها فلولُ

الا يا هندُ فابكي لا تمـــــــلي فانت الواله ُ العـــــبرى الهبولُ

الا يا هندُ لا تبدي شـــــــماتاً بحـــــــــمزة ان عزكم ذليلُ

تتظافر الفاظ الحزن في رسم المشهد الاستشهادي فكل لفظة تبكي الما ً على هذا الفقد الكبير :

- فبكت عيني
- حق لها بكاها
- ما يغني البكاء و لا العويل
- الا يا هند فابكي

اذ عملت هذه الالفاظ على رفع شحنة الحزن الى اقصى مستوى فكان الشاعر ناجحا في اعطاء الحدث ثقله الكبير و كان من اردى حمزة شهيدا ((وحشي عبد لجبير بن مطعم بحربة ، فسقط و مثلت به هند بنت عتبة بن ربيعة و شقت عن كبده فاخذت منها قطعة فلاكتها ، و جدعت انفه ، فجزع عليه رسول الله جزعا شديدا))(٥)

و قال الشاعر (بكت) و لم يقل (دمعت) اذ يرى صاحب اللسان ابن منظور الافريقي ان البكاء يمتد الى زمن قد يطول (٦) لذلك كان الشاعر موفقا في اختيار لفظ (البكاء) و نجد الشاعر يعمل على تقديم اشباه الجمل على افعالها بصورة واضحة فتأمل :

- على اسد الاله غداة قالوا
- لك الاركان هدت
- قبل اليوم ما عرفوا
- عليه الطير حائمة تجول
- بأمر الله ينطق
- بها يشفى الغليل

و ان الهدف من تقديم اشباه الجمل على افعالها (هو التخصيص) لذلك قيل ان ((تقديم المجرور يؤذن بالاختصاص)) (٧)

و استخدم الشاعر الاستفهام مثيرا (الدهشة المفزعة) بقوله (أحمزة ذاكم الرجل القتيل ؟) (٨) و قال (لك الاركان هدت) و قصد بالاركان ((الجوانب التي يستند اليها و يقوم بها الاسلام و هي قوته و شدته)) (٩) انها معاني اسلامية نابعة من الدين الجديد و كتاب الله العظيم ، و احتوى النص على عدد كبير من الاعلام مما يجعل النص وثيقة تاريخية شاهدة على احداث كثيرة ، ففي معرض حديثه عن معركة احد التي وقعت في ((شوال بعد بدر بسنة اذ اجتمعت قريش و استعدت لطلب ثأرها يوم بدر)) (١٠) فاننا نجده يستذكر الخسائر الكبيرة التي لحقت بقريش يوم بدر فمقتل شيبة بن ربيعة و الوليد بن عتبة اللذين قتلا ببدر اذ ((قتل علي بن ابي طالب – عليه السلام – و حمزة بن عبد المطلب شيبة بن ربيعة و الوليد بن عتبة في يوم بدر)) (١١) كما انه استذكر مقتل ابي جهل الذي قتله بلال الحبشي (رضوان الله عليه) و كان ((بلال بن رباح احد كبار المجاهدين و المهاجرين و مؤذن رسول الله و مولى ابي بكر الصديق و اول من أذن في الاسلام)) (١٢) . كما ان الشاعر يستذكر الصورة التي صرع فيها ابو جهل فقد كانت الطيور تحوم على جثته و هو بذلك ينزله الى مستوى متدني شبيه بالجيف التي تترك بالعراء تنهشها الطيور الجارحة ، و يستذكر امية بن خلف الذي قتل ببدر و كان ((امية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح ، كان اذا رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم همزه و لمزه فأنزل الله تعالى فيه سورة الهمزة)) (١٣) و يذهب صاحب السيرة النبوية ابن هشام الانصاري الى ان عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة و امية بن خلف كانوا من اشراف قريش (١٤) و حينما استذكر الشاعر قتلى قريش انما اراد ان يرفع من الجانب المعنوي لصحابة رسول الله الذين نكبوا في وقعة احد الكبرى و ما اصابهم من مأساة حلت بهم . لذلك كان عبد الله بن رواحة ذكيا في توظيف هذه الرثائية لرفع الجانب المعنوي لدى المسلمين . ان المعاني و القيم الانسانية تتجسم في السمات التي اطلقها الشاعر (الماجد / البر / هاشم الاخيار / كل فعالكم حسن جميل /

مصطبر / كريم) كلها سمات يفتخر بها العربي تقف امام اخلاق الجانب المشرك المقاتل و قيمه و خاصة وصف السمات التي اطلقها على هند اكلة الكبود وكأني بالشاعر يسعى لصناعة الصور المتضادة التي تنال من الخصم كما ان الاثر الاسلامي بيَّن في وصفه – لصورة الجنان التي (مخالطها نعيم لا يزول) و التي منحت لهذا الشهيد– سمة الخلود التي تختلف تماما عن صورة ابي جهل الذي جعله جيفة ارضية تحوم عليه الطير ، فالتضاد بين السماء الجنة و الارض المستقر الزائل بيَّنٌ واضح . و من باب النيل من الخصم قال الشاعر معيراً ابا سفيان (١٥):

وعدنا ابا سفيان بدرا فلم نجد لميعاده صدقـــاً وما كان وافياً

تركنا به اوصال عتبة و ابنه و عمـــــرا ابا جهلٍ تركناه ثاويا

ان من يتأمل الفعل (وعدنا) يجد ان ((كلام العرب وعدت الرجل خيرا و اوعدته شرا فاذا لم يذكروا الخير قالوا وعدته و لم يدخلوا الفاً و اذا لم يذكروا الشر قال اوعدته)) (١٦) لذلك كان الشاعر ناجحا في استعماله للفعل (وعد) و كما ان قوله (تركنا به اوصال عتبة و ابنه) يصور بشاعة مصرع عتبة و ابنه (فالاوصال هي العظام المتكسرة كل حدة من الجسد) (١٧) و هذا يشير الى القوة التي صرعت هؤلاء و هذا يعكس صورة العربي المدافع بقوة عن الدين الجديد و قال (تركنا) و كأن هذه الجثة تركت في العراء لتتفسخ و لينزل بهؤلاء الصرعى الى مستوى متدني .وما نريد ان نؤكده هنا انه وسم ابا سفيان بالكذب و عدم الوفاء و تلك قيم يأنف منها العربي ، و يقف الدكتور يحيى الجبوري عند شعر هذا الشاعر فيرى فيه ((انه يمتاز بسهولته و شيوع المعاني الدينية فيه)) (١٨) و الحق ان شعر الدفاع عن العقيدة لابد ان ينماز بالسهولة كونه شعر حرب و سرعة فنية لا تتيح للشاعر صناعة الصور التي تحتاج للتأمل و التفكير ، فهو شعر السرعة و الارتجال و البديهة و هذا ما وجدناه في شعره الاسلامي الشاخص في ديوانه من صوره الرائعة في تجسيد الشهادة و مخاطبة النفس قوله في غزوة مؤته (١٩) :

اقســـــــمت يا نفس لتنزلنه طائعـــــــــــةً او لا لتكرهنه

ان اجلب الناس و شدوا الرنة

مالي اراك تكـــــرهينَ الجنة

قد طالمـــــــــــــا قد كنــتِ مطمئنة

هل انتِ الا نطـــــــــــفة في شنة

جعفر ما اطيب ريـــــــــــح الجنة

فهذه الابيات تعكس حب الشاعر و تعلقه بالحياة بدليل انه قال (قد طالما قد كنت مطمئنة) و لهذا نحس التردد في اقدامه على المعركة فوجدناه في المقطع الاول يستصرخ النفس على النزول لميدان المعركة و كأنها لم ترغب في النزول اذ انه يخاطبها بوجود القسم و ان (القسم و ياء النداء) يمثلان تأكيدين شديدين على نزول النفس بعد ان امتنعت من النزول و ما يؤكد ذلك قوله (طائعة او لا لتكرهنه) اذ ان ذكره (لتكرهنه) دليل على بقايا حب النفس للحياة فقد بعث الرسول صلى الله عليه و سلم إلى مؤتة القادة و امراء الناس ((قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثة إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال : إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج . وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم و ودعوهم . فلما ودع عبد الله بن رواحة مع من ودع من امراء رسول الله صلى الله عليه و سلم بكى ، فقالوا : ما يبكيك يا بن رواحة ؟ فقال . أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله عز وجل . يذكر فيها النار ((و ان مِنكم الا وارِدُهَا كانَ على ربِّكَ حَتماً مَقضيِّاً)) فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود! ، فقال المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم ، وردكم إلينا سالمين))(٢٠) و في هذا الحديث دليل على ما جرى لهذا الشهيد من صراع مع النفس التي ارادت ان تمنعه عن فريضة الجهاد في سبيل الله.

((و الحق فأن هذا الشاعر نجح في تصويره الفني هذا نجاحا بارعا حين استخدم ما يعرف حديثا ب(التجسيد) فقد نقل المعنوي (النفس) الى المادي المحسوس المتحرك حين خلق له جسدا و راح في المحادثة معه مستخدما في ذلك مشطور الرجز الذي يتتابع جرسه الفني مع مثل هذا الجو)) (٢١) و قد كانت هذه الابيات انما هي صورة واضحة المعالم لشخصية العربي المسلم الجديدة في ظل الدين الجديد و الحياة الجديدة و نشاهد هذا الشاعر عاقدا حديثا صارما مع النفس في قوله (٢٢):

هل انتِ الا اصـــــــبع دميتِ

و في ســـــــــبيل الله ما لقيتِ

يا نفـــــــــــس الا تقـــتلي تموتي

هذا حمـــام الموتِ قد صليتِ

ان تســـــــــلمي اليوم فلن تفوتي

او تبتـــــــــــلي فطالما عوفيتِ

و ما تمنـــــــــيتِ فقد اعطيتِ

ان تفـــــــــــــعلي فعلهما هديتِ

و ان تأخـــــــــــرتِ فقد شفيتِ

فالشاعر هنا اكثر اصراراً و اقداماً على تلقي الشهادة ليشبه نفسه بالاصبع في قوله (انت الا اصبع دميت ِ) فلان اليد تمتلك اصابع تبتهل للرحمن و لهذا حينما قال (اصبع دميتي) فكأنه يأهلها للشهادة ثم ذهب الى النفس القراني في قوله (و في سبيل الله ما لقيتي) ليعلن ان الشهادة يتمحور صداها في قوله تعالى ((و لا تَحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل اللهِ امواتا ً بل احياءً عِندَ ربِّهم يُرزقُون)) (٢٣) ثم بدأ بتقدم و لهذا جاء خطابه بقوله (ان تسلمي اليوم فلن تفوتي) اذ اراد من يسلم اليوم يقتل غدا فهي تبحث عن السلامة و لكنه بأيمانه و معتقده فأنه يعمل على دفعها نحو الرغبة التي تساوره (الشهادة) و لهذا قال لها اخيرا مهددا (و ان تأخرت فقد شقيت) اي في تأخرك الشقاء ، ((لقد عكست هذه الابيات قابلية فنية في تكثيف العبارة ، فهذه المقاطع الشعرية توجز بفنيتها العالية كل ما يمكن ان يقال عن الشهادة و قد اسهمت الافعال التي جاء بها لا سيما افعال الامر (لتنزلنه / لتكرهنه) في خلق طابع الحركة التي شهدناها في الصورة و يبقى هذا الشاعر مبدعا حين يخاطب نفسه و يجعل منها اصبعا يدمى في سبيل الله)) (٢٤) و لقد تمحورت المعاني الانسانية حول اعلى قمم الكرم الانساني الا وهي (التضحية دفاعا عن الاسلام) فقد اوجدت الحياة الجديدة قيما لم يشعر بها العربي مثلما يشعرها اليوم فالتضحية لاجل العقيدة و الدفاع عن الدين و الاستشهاد كلها معان انسانية عالية .وتأمل دوران الشرط في سياق القصيدة حتى اننا لنجده يسود على القصيدة بهذا الشكل الواضح :

- الا تقتلي تموتي
- ان تسلمي اليوم فلن تفوتي
- ان تفعلي فعلهما هديت
- ان تأخرت فقد شقيت

فابن جني يرى في هذا ان مجيء فعل الشرط مضارعا فهو يدل على ان الحدث (متوقع مترقب) (٢٥) و في صيغة الشرط دلالة على المستقبلية الزمانية (٢٦) ، و تبقى الالفاظ و معانيها سابحة في ذهن المرء ، ما لم تترتب في انساق تركيبية او صياغية ، فالأخيرة هي التي تحدد انطلاقة الالفاظ ، و تعيد للكلمات قوة معانيها التصويرية و ان اسلوب الشرط الذي تعمده الشاعر انما يمثل الاسلوب الاقدر على حمل تجربته الشعرية فاتسمت بسمة (الحركة) التي عبر عنها اسلوب الجملة الفعلية خير تعبير .

و قال عندما خرج الى مؤته (٢٧) :

لكنني اســـــــــــأل الرحمن مغفرةً و ضربةً ذات فرغٍ تقذف الزبدا

او طعنةً بيدي حرَّان مُجهـــــــــزةً بحربةٍ تنفذ الاحشـــــــاءَ و الكبدا

حتى يقال اذا مروا على جدثي : أرشده الله من غار و قد رشـــــدا

تتضافر في هذه الابيات الفاظاً لم نكن لنعرفها في عصر ما قبل الاسلام فأن (الرحمن / الله / مغفرة / الرشد) انما هي الفاظ جديدة وفدت الى شعر حديث الولادة ، و راحت تصور لنا الانسان الراحل الى الحرب و المعتقد تماما بفكرة (التضحية لأجل العقيدة) اذ يبدأ برجاء يتمثل بقوله (اسأل الرحمن مغفرة) و هذا الرجاء يمتزج بين عظمة المغفرة و بين الرغبة الجامحة التي ابدت ستعدادا لمواجهة الطعنة التي ستقضي عليه ، و نحس بحركة واقعية ظهرت في الفاظه تجسدت في (طعنة / مجهزة / تنفذ / تقذف / مروا على جدثي) .

لقد امعن كثيرا في تصوير الضربة التي ستترك فراغا في جسده و هو يقف في مرحلة تأمل عميق امام رهبة الموت و هذه اللحظة التأملية التي عقدها الشاعر انما فسحت لنا المجال لمشاهدة ((الموت الذي يؤكد قهره للانسان عبر فاعلية الشمول حيث تتلاشى سلطة الانسان امام سلطة الموت و ان غياب الانسان امام سلطة الموت يشي بشكل واضح بحالة التبدل او التغير التي تطرأ على الانسان)) (٢٨) . لقد وظف الشاعر ابياته لتكون رسالة اسلامية داعية الى الاستشهاد فداءً و تضحية و دفاعا عن العقيدة الاسلامية و هذا يمثل قمة من قمم العطاء الانساني الذي لا يوازيه عطاء يرى أ.جروسيه E.u.Grosse في حديثه عن القصد الحقيقي – لوظيفة النص – ((ان الامر يدور حول قصد الباث الذي ينبغي ان يعرفه المتلقي ، او كما يقال ارشاد من الباث الى المتلقي))(٢٩)

و حينما ننظر الى ابيات القصيدة فأننا سنجد ان افعالها ذهبت الى اللحظة الانية الحاضرة فالسيادة للفعل المضارع : اسأل / تقذف / تنفذ / ارشده وكأنه يجعل الاستشهاد قضية أبدية لابد ان تعيش مع معتنقي المثل و القيم الانسانية .

المبحث الثاني : كعب بن مالك الانصاري :-

اولا : توطئة :

لقد كان الشعر العربي مدرسة للحياة لما ضمه من معاني انسانية تضمنت شيم العرب و افصحت عن صفاتهم النبيلة فضلا عما حواه من افكار كانت تعبر عن خبرة واقعية و تجربة معاشة كما انها مثلت نظرة للحياة و للموت و لهذا كانت معانيهم تنبثق من تجارب مريرة ترسخت من خلال معاناتهم فضلا عما غذت به بيئتهم عقولهم من قيم وتقاليد امتلكت وجدانهم ، و كان للشاعر الاسلامي اراءه و افكاره لقضية الحياة والموت ، فاطلق العنان لتفكيره الذي غذاه بقيم الاسلام ، و كانت الثقافة العربية الخالصة و القيم الروحية الاسلامية و ما توارثه في عصره من تراث روافد لثقافة الشاعر الاسلامي دخلت في بناء اراءه

الفكرية . و قد كانت المثل العليا هي القمة التي يقتدي بها الشاعر الاسلامي فسار على منوالها و راح يجدد في المعاني مستلهما ما جاء في القران الكريم .

ثانيا : الشهادة في شعر كعب بن مالك الانصاري رضوان الله عليه :

لقد كان الشاعر كعب بن مالك الانصاري من صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم و ممن شهد الحروب التي خاضها المسلمون دفاعا عن الاسلام ، و كان استشهاد حمزة رضي الله عنه انما يمثل صدمة في ذات الشاعر فبعد مقدمة طللية عكست انكسارا نفسيا واضحا مثلت حجم المعاناة (٣٠) بفقد هذه الشخصية الاسلامية الرائدة قال في بعض ابيات رثائه (٣١) :

قرمٌ تمكن في ذؤابةِ هاشـــمٍ حيث النبوةُ و الندى و السؤددِ

عمُّ النبي محمـــــــــــدٍ و صفيهِ ورد الحمام فطاب الذاك المواردِ

و اتى المنية مُعلماً في أسرةٍ نصروا النبي و منهم المســـــــتشهدِ

تقف المعاني الانسانية في بكائية الشاعر عند نقطة جوهرية تتمحور عند الشاعر و اسس لها الا وهي (قضية الانتساب لشجرة النبوة) فالنص الشعري يعطي لنا صورة واضحة عن مجتمع اتسم بالعصبية القبلية من قبل اذ حاول الشاعر ان يجعل من ذؤابة هاشم حيث النبوة و الندى و السؤدد معادلا موضوعيا للإسلام الذي الغى العصبية القبلية و أحل مكانها الانتماء الاصيل لهذه الشجرة (الاسلام) .

فأضفى الشاعر سمة (الرئاسة) لهذا الرجل حمزة عليه السلام فقال عنه (ذؤابة هاشم) قاصداً رأس عشيرة هاشم لقد حصر الشاعر النبوة و الكرم في ذؤابة هاشم هنا اي علياء هاشم المتمثلة برئاسة بني هاشم ، و نود ان نذكر هنا ان الشاعر جعل من الحمام (الموت) الذي يعني الشهادة موردا عذباً اذ يطيب لورود هذه الشخصية اليه و في كلمة ورود ايماء الى ان الشهادة مورد ماءٍ عذبٍ يتلقاه الشهيد كما انها تعني الاقبال لا الهزيمة ، و قد اعطى الشاعر للشهيد صفة (معلم) اي انه كان علما و هنا اشار الى الوحدة المقاتلة المتماسكة التي عرفت بتحقيق النصر في سوح المعارك و المتمثلة بالمسلمين الذين نصروا النبي صلوات الله و سلام عليه و ان ((البطل عادة لا يكون الا في مجتمع يمثل النموذج الحي لصفات ابنائه ، و المثال الاعلى لنوع حياتهم و مواهبهم و الامة المحاربة ينبغ فيها البطل ، فيبلغ مكانة لا تطاول و اثراً لا يبارى ، وكلمة لا ترد فيُغني غناء الجحافل ، حتى اذا خلا مكانه و افتقد ، زاد ذكره و ارتفعت سمعته و ان احتفاء الامة بابطالها من ابرز دلائل حيويتها)) (٣٢) و تقف صور الشهادة مثلا عليا اسلامية فيما قاله من شعر يوم خيبر يقول (٣٣):

و نحن وردنا خيبرا و فروضُـــــــــه بكل فتى عاري الاشـــــــــاجع مذودِ

جوادٍ لدى الغايات لا واهن القوى جريءٌ على الاعداءِ في كلِّ مشهدِ

عظيمُ رماد القدر في كلِّ شـــــــتوةٍ ضروبٌ بنصل المشـــــــــــرفيِّ المهندِ

يرى القتل مدحاً ان أصابَ شهادةً من اللهِ يرجوها و فوزاً بأحمـــــــدِ

يذودُ و يحمي عن ذمـــــارِ محمدٍ و يدفعُ عنه باللســـــــانِ و باليدِ

و ينصرهُ من كل امرٍ يريبـــــــهُ يجودُ بنفـــــسٍ دون نفس محمدِ

ان لفظة (وردنا) تعكس حب السير نحو فتح خيبر لان الورود فيه معنى الشغف و السعي نحو النبع و هو حين يريد ان يصور قوة المقاتل الفاتح فأنه يصور يده القوية التي برزت فيها الاشاجع و هي ((مفصل الاصابع واحدها اشجع ، و قيل الاشاجع رؤوس الاصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف ، و يقال للذئب و للأسد عاري الاشاجع)) (٣٤) ثم ما يلبث الشاعر فيذكر صفات هذا المقاتل و هي صفات سبق و ان سمعنا صداها في شعر ما قبل الاسلام و اعتمدت على سمة الكرم التي تمثلت في الكناية التي جاء بها (عظيم رماد القدر في كل شتوة) و قد امتزج الكرم بالشجاعة مستخدما صيغة ضروب التي تدل على انه ((شديد الضرب او كثير الضرب)) (٣٥) و ما ان يتصل الشاعر بهذه الاصالة (القدم) حتى يتجه صوب المعنى الاسلامي الذي يتعلق بالشهادة فبينما كان القتيل في الجاهلية يغدو ميتاً اصبح عند هذا الشاعر الاسلامي و وفق عقيدته الاسلامية شهيدا يسعى اليه المقاتلون اذ ان الشهادة و كما يذهب الشاعر هي مدح من الله و فوز بأحمد – صلى الله عليه و سلم – من هنا فأن الرسول صلى الله عليه و سلم في هذا البيت مما يفوز به المسلم عندما ينال الشهادة و كأنما هو جنة المأوى . و لهذا فالمقاتل في سوح القتال يذود عن رسول الله بوسيلتين مهمتين هما الشعر (اللسان) و (اليد) التي تعني السلاح و لهذا فأن الشاعر استخدم الانزياح حينما جاء بالمجاز في كلمتي اللسان و اليد و لهذا يغدو المقاتل المسلم ممن يذود عن رسول الله صلى الله عليه و سلم في سوح المعارك .

لقد صار العربي المقاتل هو المحور العالي للمثل العليا ، فذلك الاستعداد المتناهي لنيل الشهادة انما يمثل اعلى قمم التضحيات الانسانية فالمثل التي اكدها الاسلام انما ادت دورا في ابراز وحدة الامة و تماسكها فهذا العربي الذي وصفه بأنه (جريء على الاعداء) و (يذود و يحمي ذمار محمد) و انه (يجود بنفس دون نفس محمد) انما يمثل الكتيبة العربية المقاتلة بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، فراح الشاعر الاسلامي يدفع الى ابراز صفة الجماعة المتقدمة لنيل الشهادة فلم يصبح الحديث فرديا او قبليا و انما نجده اليوم عربيا مسلما. و نقف عند الزمنية التي تسيطر على مجرى القصيدة فأننا نجد المضارعة في (يرجو / يرى / يحمي / يذود / يدافع / ينصر / يريب / يجود / يدافع) انما تسيطر تماما على زمنية القصيدة و كأنما الشاعر خطط لهذا لتكون القصيدة انية و مستمرة في انيتها .

و تقف المعاني الانسانية في بكائه لقتلى مؤته فبعد مقدمة بكائية حزينة تصدرت القصيدة قال فيهم (٣٦) :

صلى الاله علـــــيهم من فتيةٍ و ســـــقى عظامهم الغمامُ المسبلُ

صبروا بمؤتة للإله نفوســـــهم حذر الردى و مخافة ان ينـــــكلوا

فمضوا امام المســـــلمين كأنهم فنقٌ عليهن الحـــــديد المُرقلِ

اذ يهتـــــــدون بجعفرٍ و لوائه قـــــدَّام اولهم فنـــــــعم الاولِ

حتى تفرجَّت الصفوف و جعفرٌ حيث التقى وعثُ الصفوف مجدَّلِ

فتغيَّر القمرُ المنـــيرُ لفقدهِ و الشمسُ قد كسفت و كادت تأفلُ

قومٌ لاصلهم الســـــــيادةُ كلها قدماً و فرعهم النبي المرســـــلِ

بيض الوجوه ترى بطون اكفهم تندى اذا اعتـــــــذر الزمان الممحلِ

النص تتعالق فيه المعاني الانسانية على الرغم من ان جو النص جوا حربيا فالشاعر حاول ان يبعد عن لغة الدم باتجاه معان انسانية ليقف في مقدمتها (الكرم) و يتجسد في عطاء (جعفر بن ابي طالب) عليه السلام في تقديم نفسه مشروعا للشهادة (مجدلا) و يمتزج الصبر معنى انساني بالشجاعة اذ وسم شخصية جعفر (بالقيادة) التي تتقدم الصفوف فقد ((قاتل زيد بن حارثة براية رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى شاط في رماح القوم ثم اخذها جعفر بن ابي طالب فقاتل بها حتى اذا الحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل فكان جعفر اول رجل من المسلمين عقر في الاسلام فرسه))(٣٧) و لذلك كان ((الكرم و الشجاعة و الصبر على المكاره كانت خلقة متصلة متماسكة سنَّها الفرسان ، و رفعوا لواءها عاليا و قد هيأت نفوسهم لسمو انساني نبيل ، و عوَّدتهم على قيم خالدة)) (٣٨) و يجسد لنا الشاعر كرم هؤلاء الصحابة الاوائل مستخدما (كناية) عن هذا المعنى في وصفه للجماعة المقاتلة المتجهة للشهادة بأنها (ترى بطون اكفهم تندى) اذ ان العطاء ينبع من الكف و ان كرمهم لا يكون الا في الزمن الصعب

امعن الشاعر كثيرا في حديثه عن قيادة جعفر لصفوف المقاتلين و تقدمه للالوية المحاربة ذلك لان ((القيادة مسؤولية كبيرة لا يجوز ان تناط بمن لا تتوفر فيه شروطها و مقوماتها من مؤهلات و تفوق و استعداد دائم للتحمل و التجلد و التضحية من اجل الاخرين)) (٣٩) و لهذا نستطيع ان نتخذ من هذه القصيدة صفحة تاريخية لهذه الشخصية التي تمتعت بتلك المثل العليا الانسانية و لهذا بكت السماء على ما يحملون من معان انسانية و قيم نبيلة حتى انه جعل السماء تسبل الدمع عليهم و لكنه دمع مبارك مصدره السماء حتى انه اشرك الطبيعة في البكاء على هؤلاء الفتية في قوله (فتغير القمر المنير لفقده) و (الشمس كسفت وكادت تأفل) فأن ((انكسفت الشمس فأنه حدث شر عظيم و موت كثير و يقل المطر و يقتل الخسيس الاصيل الشريف و يموت الناس ، فتكون حرب عظيمة)) (٤٠) .

الخاتمة

لقد وقف البحث عند اهم مرحلة من مراحل الصراع الذي خاضه المسلمون دفاعا عن قضية الوجود و نشر الاسلام في اصقاع الجزيرة فكانت هناك قصائد باكية تحدثت عن سقوط فرسان كبار لم يأت مثيلا لهم فكانت شهادة حمزة بن عبد المطلب اسد الله رضوان الله عليه و قد اشعلت نيران الحزن في صدور المسلمين فبكت عليه قصائد كبار الشعراء و التي تحدثت عن هول الاستشهاد و هول التمثيل بجسده الطاهر كما وجدنا عند كعب بن مالك الانصاري و عبد الله بن رواحة اللذان جسدا بصدق مقدار الالم الذي اوجده هذا الشهيد العظيم ، و استشهاد جعفر بن ابي طالب عليه السلام في يوم مؤته ذلك الاستشهاد المروع الذي حصل دفاعا عن العقيدة الثابته ، فضلا عن استشعار النفس لهول النزال كما حصل مع شاعرنا عبد الله بن رواحة يوم مؤته و تلك الامنيات التي تمناها لينال الفوز قرب احمد صلوات الله و سلام عليه .

لقد كان حديث الشعراء في هذه الحقبة حديثا عربيا انسانيا اسلاميا رفض الاعتداء على حرمة الانسان و وقف الى جانب المظلومين من الناس و دافع عن الصوت الاسلامي الجديد و رفع لواء الراحلين الى الحروب و جسد عمق التجربة التي عاشها العربي في تلك المرحلة الحرجة من حياة الامة الاسلامية و قد نظر البحث في ذاك الشعر الذي تحدث عن فكرة الاستشهاد و فكرة الدفاع عن الدين الاسلامي الجديد .

قائمة الهوامش

(١) لسان العرب ، ابن منظور الافريقي ، طبعة بيروت ، مادة (شهد)

(٢) كتاب التعريفات ، علي بن محمد الجرجاني ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، مادة (شهد) .

(٣) في الشعر و النقد ، منيف موسى ، دار الفكر اللبناني ، ط١ ، ١٩٨٥ ، ص ١٥-١٦

(٤) ديوان عبد الله بن رواحة و دراسة في سيرته و شعره ، د. وليد قصاب ، ط١ ، ١٩٨١ ، دار العلوم للطباعة و النشر ، الرياض ، ص١٣٢

(٥) تاريخ اليعقوبي ، احمد بن اسحق بن جعفر بن وهب اليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ) ، طبع بقم المقدسة ، سنة ١٤٢٥ هـ ، ٣١/٢

(٦) لسان العرب ، مادة (بكى)

(٧) بحر المحيط ، ابو حيان الاندلسي ، تحقيق محمد بن يوسف بن علي ، مكتبة و مطابع النصر الحديثة ، السعودية ، ٤/ ٤٥٤

(٨) ديوان عبد الله بن رواحة ، ص ١٣٢

(٩) لسان العرب ، مادة (ركن)

(١٠) تاريخ اليعقوبي ، ٢ / ٣١

(١١) الرياض النضرة في مناقب العشرة ، احمد بن عبد الله بن محمد الطبري (ت ٦٩٤ هـ) ، تحقيق : عيسى عبد الله محمد مانع الحميري ، بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، ١٩٩٦ ، ط١ ، ١ / ٢٣٧

(١٢) عجائب الاثار في التراجم و الاخبار ، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ، بيروت ، دار الجيل ، ١ / ٤٤٣

(١٣) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا ، مكتبة تراث الاسلام ، دار الكتب المصرية ، ١ / ٣٣٢

(١٤) المصدر السابق ، ١ / ٢٦٤

(١٥) ديوان عبد الله بن رواحة ، ص ١٣٨

(١٦) لسان العرب ، مادة (وعد)

(١٧) المصدر السابق نفسه ، مادة (وصل)

(١٨) شعر المخضرمين و اثر الاسلام فيه ، يحيى الجبوري ، تقديم طه الحاجري ، العراق ، بغداد ، مطابع الارشاد ، ط١ ، ١٩٦٤ ، ص٨٨

(١٩) ديوان عبد الله بن رواحة ، ص ١٥٣

(٢٠) تاريخ الطبري – تاريخ الامم و الملوك – ابو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٢٢٤ – ٣١٠ هـــ) ، تقديم ابو صهيب الكرمي / الاردن ، بيت الافكار الدولية /ط ٢٠٠٣ / ج١ – ٤٦٨

(٢١) الكائن الازلي – دراسات في الادب الاسلامي – أ.د. احمد شاكر غضيب ، العراق ، بغداد ، دار الفراهيدي للنشر و التوزيع ، ط٢ ، ٢٠١٣ ، ص ٨٠

(٢٢) ديوان عبد الله بن رواحة ، ص ١٥٤

(٢٣) القران الكريم ، كتاب الله عزوجل ، ال عمران ١٦٩ –١٧١

(٢٤) الكائن الازلي ، ص ٨١

(٢٥) الخصائص ، ابو الفتح عثمان ابن جني (ت ٣٩٢ هـــ) ، نحقيق محمد علي النجار ، ط١ ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٦ م ، ٣/ ١٠٥

(٢٦) المصدر السابق نفسه ، ١٠٥/٣

(٢٧) الديوان ، ١٤٧

(٢٨) جماليات التحليل الثقافي (الشعر الجاهلي انموذجاً) ، د. يوسف عليمات ، الاردن ، عمان ، طبعة وزارة الثقافة ، ط١، ٢٠٠٤ ، ص ٢٢٣

(٢٩) التحليل اللغوي للنص / مدخل الى المفاهيم الاساسية و النماذج ، تأليف كلاوس برينكر و ترجمة د. سعيد حسن بحيري ، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط٢ ، ٢٠١٠ ، ص١٣٧

(٣٠) ديوان كعب بن مالك الانصاري – دراسة وتحقيق – ، سامي مكي العاني ، بغداد ، منشورات مكتبة النهضة ، ص١٨٩

(٣١) المصدر السابق نفسه ، ص١٩٠

(٣٢) الفروسية في الشعر الجاهلي ، د. نوري حمودي القيسي ، ط١ ، لبنان ، بيروت ، عالم الكتب ، ٢٠٠١ م ، ص ٩١

(٣٣) ديوان كعب بن مالك ، ص ١٩٦

(٣٤) اللسان ، مادة (شجع)

(٣٥) المصدر السابق ، مادة (ضرب)

(٣٦) ديوان كعب بن مالك ، ص ٢٦١-٢٦٣

(٣٧) تاريخ الطبري ، ص ٤٦٩

(٣٨) الفروسية في الشعر الجاهلي / ص ٩٢

(٣٩) الشعر الجاهلي و اثره في تغيير الواقع ، د. علي سليمان ، دمشق منشورات وزارة الثقافة ، سنة ٢٠٠٠ ، ص ١١٣

(٤٠) مخطوطة كتاب الدلائل ، الحسن ابن البهلول ، تحقيق محي الدين صابر ، باب تراث النصرانية ،

قائمة المصادر و المراجع

١- القران الكريم ، كتاب الله جل وعلا

٢- بحر المحيط ، ابو حيان الاندلسي ، تحقيق محمد بن يوسف بن علي ، مكتبة و مطابع النصر الحديثة ، السعودية

٣- تاريخ الطبري – تاريخ الامم و الملوك – ابو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٢٢٤ – ٣١٠ هـــ) ، تقديم ابو صهيب الكرمي / الاردن ، بيت الافكار الدولية /ط ٢٠٠٣ / ج١

٤- تاريخ اليعقوبي ، احمد بن اسحق بن جعفر بن وهب اليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ) ، طبع بقم المقدسة ، سنة ١٤٢٥ هـ

٥- التحليل اللغوي للنص / مدخل الى المفاهيم الاساسية و النماذج ، تأليف كلاوس برينكر و ترجمة د. سعيد حسن بحيري ، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط٢ ، ٢٠١٠

٦- التعريفات ، علي بن محمد الجرجاني ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان

٧- جماليات التحليل الثقافي (الشعر الجاهلي انموذجا ً) ، د. يوسف عليمات ، الاردن ، عمان ، طبعة وزارة الثقافة ، ط١، ٢٠٠٤

٨- الخصائص ، ابو الفتح عثمان ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) ، نحقيق محمد علي النجار ، ط١ ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٦ م

٩- ديوان عبد الله بن رواحة و دراسة في سيرته و شعره ، د. وليد قصاب ، ط١ ، ١٩٨١ ، دار العلوم للطباعة و النشر ، الرياض

١٠- ديوان كعب بن مالك الانصاري – دراسة وتحقيق – ، سامي مكي العاني ، بغداد ، منشورات مكتبة النهضة

١١- الرياض النضرة في مناقب العشرة ، احمد بن عبد الله بن محمد الطبري (ت ٦٩٤ هـ) ، تحقيق : عيسى عبد الله محمد مانع الحميري ، بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، ١٩٩٦ ، ط١

١٢- السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا ، مكتبة تراث الاسلام ، دار الكتب المصرية

١٣- الشعر الجاهلي و اثره في تغيير الواقع ، د. علي سليمان ، دمشق منشورات وزارة الثقافة ، سنة ٢٠٠٠

١٤- شعر المخضرمين و اثر الاسلام فيه ، يحيى الجبوري ، تقديم طه الحاجري ، العراق ، بغداد ، مطابع الارشاد ، ط١ ، ١٩٦٤

١٥- عجائب الاثار في التراجم و الاخبار ، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ، بيروت ، دار الجيل

١٦- الفروسية في الشعر الجاهلي ، د. نوري حمودي القيسي ، ط١ ، لبنان ، بيروت ، عالم الكتب ، ٢٠٠١ م

١٧- في الشعر و النقد ، منيف موسى ، دار الفكر اللبناني ، ط١ ، ١٩٨٥

١٨- الكائن الازلي – دراسات في الادب الاسلامي – أ.د. احمد شاكر غضيب ، العراق ، بغداد ، دار الفراهيدي للنشر و التوزيع ، ط٢ ، ٢٠١٣

١٩- لسان العرب ، ابن منظور الافريقي ، طبعة بيروت

٢٠- مخطوطة كتاب الدلائل ، الحسن ابن البهلول ، تحقيق محي الدين صابر